الإسلام و عجائب المخلوقات: مملكة الحيوان

آنماري شيمل

هل لي أن أضرب ما أحب من الأمثلة،

مثلما اتخذ الله من البعوض مثلا للحياة ؟

هكذا كتب الشاعر الألماني جوته في West-Östlicher Divan أو "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"، ديوان شعره الذي استوحاه من الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي (ت٧٩٤ هـ/ ١٣٩١م) ومن الثقافة الإسلامية عامة. يشير جوته إلى الآية الكريمة ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها...﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٦).

ينمّ هذا المثال عما اشتمل عليه القرآن الكريم من إشارات شتى إلى مكانة الحيوان، الذي يكثر ذكره بأساليب متنوعة. وللحيوان أهميته في التراث الإسلامي، قال الله تعالى ﴿... ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾... (سورة هود، الآية ٥٦). حيث يتعلم البشر أن كل الكائنات تذكر الله وتقر بقدرته. ولهذا ليس من المستغرب أن يكون للحيوان دور بالغ الأهميّة في كل

جوانب الثقافة الإسلاميّة. وفي حالات كثيرة استوعبت الثقافة الإسلاميّة من العصر الجاهلي أفكارًا وعادات تتعلق بالحيوان بعد أن هذّبتها وارتقت بها.

كل من يعنى بدراسة اللغة العربيّة يعرف أن حيوانات مهمّة مثل الأسد والجواد – بل ما هو أصغر حجما، مثل الهر – لها أسماء كثيرة مختلفة. ونحن نعرف قصّة الأعرابي الذي عثر على هرّة، كائن لم يره من قبل قط، وسعى إلى بيعها في الأسواق كتحفة نادرة. وعندما وجد أن كل من يصادفه يطلق على الهرة اسما مختلفا قرّ في نفسه أنها كنز ثمين، وسرعان ما خاب أمله عندما وجدها لا تساوي مثقال ذرة، وعبر عن خيبته قائلا: "ما أكثر أسماءك وما أقل جدواك!".

لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن أسماء الحيوان كثيرا ما تطلق على أشخاص، مثل كلمة «أسد» التي لها مرادفات كثيرة في اللغة العربية كالليث والغضنفر وغيرهما، وفي الفارسية "شير "وفي التركية " أرسلان"، ولن نورد أسماء حيوانات أخرى. كان من العادات الشائعة لدى البدو أن يطلق على المولود اسم أول شيء تقع عليه العين بعد الولادة مباشرة؛ لذلك نصادف أسماء قد تبدو غريبة، مثل القنفذ وما أشبه، بل نجد في المصادر العربية القديمة أسماء حيوان أدنى شأنا من القنفذ أطلقت على أشخاص. وشاعت أسماء الطيور الضارية، مثل "الصقر" أو "النسر"، ونالت هذه الأسماء بوجه

خاص إعجاب أتراك آسيا الوسطى، على سبيل المثال نصادف أسماء: سنقر وطوغان وتوقان. وقد تستخدم أسماء الحيوان كألقاب: على سبيل المثال إطلاق لقب "أسد الله" على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتُرجم اللقب إلى الفارسية "شير خدا "وإلى غيرها من اللغات. كذلك تطلق على شيوخ الصوفية ألقاب مماثلة، فيعرف عبد القادر الجيلاني بـ"الباز الأشهب"، كما أطلق على لال شهباز قلندر (ت٦٧٢هـ/١٢٧٤م)، الهندي، لقب "الصقر الأحمر".

يحفل الأدب العربي، كما يحفل الأدب الفارسي، بحكايات لا حصر لها عن الحيوان، ومن بينها: "**كليلة ودمنة**" التي ترجمها عبد الله بن المقفّع (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م) إلى العربية في القرن الثامن الميلادي، وشقّت طريقها إلى أوربا في العصور الوسطى. وقد كتبت **كليلة ودمنة** بروايات كثيرة في التراث الإسلامي، وكانت نسخها المخطوطة محلاة دائما بلوحات بديعة. لم تكن **كليلة ودمنة** الكتاب الوحيد الذي يضم حكايات الحيوان، إذ لم يقتصر الاهتمام بحكايات الحيوان على القراء والمؤلفين الذين توفروا على إشباع رغبة القرّاء، بل أبدى الصوفيّة اهتماما كبيرا بالأمر. وفي تلك الفترة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ألّف كاتبان من بلاد فارس حكايات عن الحيوان. أحدهما: "شيخ الإشراق" شهاب الدين يحيى السهروردي، (الذي قتل في حلب عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، وهو غير عمر السهروردي مؤسس الطريقة السهروردية (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

تحكي القصص القصيرة التي كتبها السهروردي بالفارسية عن: الطاووس الذي اختبأ تحت سلة ونسي بيته في حديقة الملك، وعن السحلية التي سجنها خفاش لأنها أرادت أن توقع به أقسى ألوان العقاب، وذلك بطرحه في الخارج في ضوء الشمس الساطعة، وفي ذلك عقاب وأي عقاب للخفاش الذي لا يعيش إلا في ظلمة الليل، بيد أنه مبعث سعادة السحلية التي تغرم بالشمس (وذلك يماثل تماما عجز المنغمسين في ماديات الحياة عن فهم ما في الحياة الروحيّة من جمال). وهناك الكثير من الحكايات الرمزية التي صنفها المتصوفة.

في نفس الفترة تقريبا وفي الشمال الشرقي من إيران كتب فريد الدين العطّار (ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) العديد من الأعمال الهامة، من بينها رائعته الشعرية "**منطق الطير**" الذي صوّر مشاهد ممتعة لرحلة الأرواح الطائرة بحثا عن "السيمرغ" الغامض، وتعثر عليه بعد أن تتوه في سبعة أودية. ومن قديم صار الطير رمزا للروح السجينة في الجسد الترابي.

وبينما كانت الحيوانات المفضلة في التراث العربي القديم هي الخيل السريعة، والإبل القوية وصقور الصيد، فإن تحول مركز الحضارة في مطلع الدولة العباسية إلى بغداد، أدى إلى حدوث تطور في الأدب العربي فارتقى شعر الصيد (الطرد) على أيدي شعراء البديع، واستألف الأثرياء الحيوان المتوحش في بيوتهم. فلا عجب أن عرف الشعر في العصر العباسي قصائد في هرة محبوبة أو كلب وفي، وفي الوقت نفسه ظهرت رسائل علمية في

البيطرة وما يتصل به من موضوعات، كما أصبحت كتب البيزرة[١] والزردقة[٢] من المقتنيات الهامة في القصور. وتجدر الإشارة إلى أن أفضل ما يصور الرعاية التي أسبغها الخلفاء المسلمون في عصر لاحق على جوارح الصيد في حدائق الحيوان الخاصة بهم في قصورهم، هو ما نجده في حوليات الملوك المغول في الهند بدءًا من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر. كانت الفيلة تستحم بالماء الدافئ بل إن بعضها ينعم باحتساء النبيذ كل يوم.

بدءاً من مطلع القرن التاسع الميلادي شرع المؤلفون العرب في وضع كتب عن الحيوان. أولهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩م)، الذي جاء كتابه "**الحيوان**" نموذجا لهذا اللون الأدبي، ثم كتب ابن بختيشوع (ت٤٥١هـ/١٠٥٩م) "**منافع الحيوان**"، بينما ركّز زكريا القزويني (ت ٨١٧ هـ/ ١٤٠٥م) على الجوانب الغريبة في عالم الحيوان. وترك لنا العالم المصري محمد بن موسى الدميري (ت ٦٨٢هـ/١٣٨٣م) كنزا ثمينا من المعارف في كتاب "**حياة الحيوان**" بمثابة دائرة معارف يجد فيها القارئ كل ما يبتغيه من علم الأحياء والبيطرة، إلى ما قيل من شعر في الحيوان، أو ما يتعلق بالحيوان من أحكام الشريعة. وربما نتردد طويلا قبل أن ننساق إلى تجربة ما يقدمه لنا من وصفات لعلاج السعال: (عليك بمخ غزال صغير واخلطه بدهن فأر واغل الخليط وأضف إليه عصارة بذور الكمّون...).

---

(١) فن صيد الجوارح. (٢) علم تربية الخيول

اتخذ الفلاسفة من صنوف الحيوان أمثلة يضربونها في شرح نظرياتهم. ولعل أروع كتاب في هذا المجال هو **رسائل إخوان الصفا**، ولاسيما الرسالة الثانية والعشرين في خلق الحيوان وأصنافه، ومنها "فصل في بيان العداوة بين الجن وبني آدم" ولها ترجمة إنجليزية رائعة أعدها لينارد جودمانز (Lennard Goodmann)، وترجمة ألمانية تماثلها في الجودة لإيلما جيز(Alma Giese). إن جوهر هذا الكتاب البديع هو أن الحيوان يتمتع بمواهب وقدرات مذهلة، وأن الإنسان يبدو أضعف من الحيوان، ومع ذلك فإن الإنسان أسمى من الحيوان شأنا، لأنه "الحيوان الناطق" الذي منحه الله نعمة التفكير المنطقي. وأهم من كل ذلك أن اللّه ميّز الإنسان بحمل الأمانة كما جاء في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٧٢).

يؤدي الحيوان دورا كبيرا في تفسير الأحلام. فلكل حيوان مدلول خاص في التفسير، لكن القاعدة العامة هي أن الحلم الذي تحدث فيه سيطرة على حيوان عرف بالشراسة أو القذارة يُفسَّر بسيطرة من رأى الحلم على صفاته السيئة.

وليس بمستغرب وجود عدد ضخم من الأمثال التي تتعلق بالحيوان، كثيرة الورود في مواطن عديدة، في الحياة اليومية، وفي الأعمال الأدبية

أيضا. يعبر الشاعر التركي ضيا باشا (ت ١٢٩٧ هـ/ ١٨٨٠م) عن فكرة شائعة قائلا:

هل يمكن للزي الأنيق أن يخلع صفات نبيلة على من ولد وضيعا؟

ألا يظل الحمار حمارا ؟ ولو وضعت على ظهره سرج حرير مطرزا بالذهب!

على النحو نفسه يقول المثل الإنجليزي الشائع:

القرد قرد والخادم خادم

مهما لبسا من حرير أو مخمل

التشبيهات المقترنة بالحيوان لا تقل من حيث الكثرة عن مثيلاتها في اللغات الغربية. ويستمتع من يقرأ **مقامات الحريري** بتشبيهات لطيفة جدا، وقد تكون نابية، ومنها ما لا بأس به مثل قولهم (أقبح من قرد).

ودائما تروي الحكايات الشعبية على المستمعين "مناظرة"ما، وتحاول جاهدة إثبات تفوّق حيوان على حيوان آخر: أيهما أكثر أهمية، الناقة أم البقرة، الشاة أم الدجاجة؟ أو بالأحرى مالحيوان الأفضل الجدير بالتفوق على غيره؟ وقد ظل هذا اللون الأدبي معروفا في المنتديات الأدبية، حتى زمن أمين الريحاني (ت ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م).

إن الحيوان أكثر أهمية في قصص الصوفيّة، فالحيوان الذي يضحّي بنفسه من أجل إنقاذ حياة صاحبه فكرة شائعة في العالم الإسلامي مثل هرّة

المتصوف الهندي أشرف جاهانكير السمناني (ت ٨٠٨ هـ/ ١٣٠٥م) التي قذفت بنفسها في إناء من اللبن المغلي، لأنها رأت ثعبانا ساما في قاع الإناء، فأرادت أن تنقذ حياة صاحبها الذي أوشك أن يشرب ذلك اللبن. والحيوان، خاصة الهرّة، نموذج للوعي الروحي، ففي أحوال كثيرة تحذر القطة صاحبها، في حين تتحول القطة الشرسة إلى حيوان مطيع بمجرد نظرة من صاحبها. بل عاش بعض الصوفية في صحبة الحيوان، فسهل بن عبد الله التستري (ت٢٨٢هـ/٨٩٦ م) وهو من أعظم أئمة الصوفية، بنى قرب مسكنه بيتا سماه "بيت السباع"، حيث عاشت الحيوانات المتوحشة معا في وئام. ويتولى الصوفية تربية الحيوان الذي يقوم في بعض الأحيان بخدمتهم بإخلاص وتفان. مثل هذه الحكايات كثير في سير القديسين الأوربيين في العصور الوسطى. وربما تكون القصة المروية عن رابعة العدويّة (ت ١٣٥هـ/ ٧٥٢م) حقيقية ، إذ يحكى أن الحيوانات لا تهرب من صحبتها، لأنها لا تشم في أنفاس رابعة رائحة الدهون الحيوانية، إذ كانت رابعة نباتية ملتزمة مثل عدد غير قليل من الصوفيّة. يجب على الإنسان أن يحترم الحيوان لأنه من مخلوقات الله، مما يبدو واضحا في قصة الزمخشري (ت ٥٣٧هـ/١١٤٣م) وهو من أشهر مفسري القرآن الكريم، فقد الزمخشري إحدى قدميه خلال إحدى رحلاته، وعندما سئل كيف حدث ذلك، أجاب أنه كان لي في صباي طائر، ووقع ذلك الطائر داخل حفرة في جدار لم يستطع منها فكاكا، وعندما

حاول الزمخشري إخراجه من الحفرة بجذب الخيط الذي التف حول ساق الطائر، انكسرت وانفصلت عن الطائر. وعندما عرفت أمه بما جرى للطائر المسكين دعت على ابنها بأن يفقد إحدى قدميه، واستجاب الله لدعائها.

الحيوانات مخلوقات الله، ويجب أن تعامل برفق حتى لا تصاب بمكروه، بيد أن بعض الناس مثل أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)، يعتقد أن الله سيعوض الحيوان خيرا في الحياة الآخرة عن كل ما قدر عليه معاناته من آلام في الحياة الدنيا. ومن المعروف أنَّ النبي ﷺ نهى عن ممارسة كل ألوان الاقتتال الذي يدور بين الحيوان، مثل صراع الديوك أو نطاح الكباش. ومما يدعو للأسف أن ألوان الاقتتال هذه، رغم نهي النبي ﷺ عنها، ظلت من بين ألوان الترفيه الشعبية الشائعة، التي مورست على نطاق واسع وبشيء من الأبهة والاهتمام في زمن المغول، وتصور المنمنمات تفاصيل القتال بين الفيلة أو بين الجمال.

إذا ما تناولنا مملكة الحيوان بادئين بأدناها شأنا: الحشرات، نجد أن بعض الحشرات ورد ذكرها في القرآن الكريم وبصفة خاصة الجراد ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٣٣). تحدثنا الآية عن تسليط الطوفان والجراد على مصر عقابا لأهلها. أما البعوضة، التي بدأنا بها حديثنا هذا، فهي رغم ضعفها الظاهر يمكن أن تكون أداة

انتقام بإذن الله ، إنها عدو جبار لا ينبغي أن نستهين به. ألم تستطع بعوضة ضئيلة الحجم أن تقتل النمرود، ذاك الطاغية الجبّار، بأن زحفت عليه من فتحة أنفه ودمرت مخّه ؟ وهكذا يعاقب الله كل جبّار بأن يسلط عليه أصغر المخلوقات.

ننظر إلى البعوضة من زاوية أخرى، في القصيدة التي كتبها شاعر هندي بالأردية، يتغنى بها في ليلة صيف قائظ:

من ذا الذي يأتي إلى مخدعي كل مساء؟

ليوقظني مغرداً بأغنيات الحب في مخدعي

أهي صديقتي، متعمدة فعل ذلك؟

لا إنها بعوضة!

البرغوث أكثر إزعاجًا من البعوضة، رغم ذلك يُروى عن النبي ﷺ أنه قال ردا على نفر من الصحابة جاءوا إليه شاكين من ذلك المخلوق الضئيل الذي كثيرا ما ألحق بهم الأذى: (على الأقل يوقظكم لتؤدوا الصلاة) وقد بحث العلماء مشكلة ما إذا كان من الجائز قتل البراغيث والقمل أثناء الحج، وكتب محمد بن عمر الغمري (ت ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م)، الذي عاش في القاهرة، رسالة عن وجود البراغيث والقمل في الثياب وتأثيرها على الطهارة أثناء تأدية مناسك الحج. ويتساوى حظ الذبابة من حيث الحب والكراهية، ألا يتنقل الذباب كيف يشاء؟ ولم تأت عبثا تلك العبارة الشائعة ": أكثر اعتزازًا بنفسه

من ذبابة" . ويقال إن الخليفة العباسي المأمون، ابن هارون الرشيد، كان يشكو من كثرة الذباب الذي يحيط به على الدوام، ووجه سؤاله وهو شبه يائس من الحصول على جواب شاف إلى الفقيه العظيم محمد بن إدريس "الشافعي"(ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): لماذا خلق الله الذباب؟ فأجابه الشافعي أن الله خلق الذباب ليضرب مثلا لذوي السلطان أن هناك شيئا لا يستطيعون بكل ما أوتوا من قوة أن يتغلبوا عليه، وقبل المأمون هذه الحجة.

يرتبط الذباب في التراث الفارسي عادة بالحلوى. يقول حافظ لا عجب أن يتجمهر المعجبون على باب المحبوب، "إذ حيثما وجد السكّر تكاثر الذباب" .

العنكبوت من بين الحشرات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لَبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ (سورة العنكبوت، الآية ٤١)، ولعل في الجزء الأخير من الآية إشارة إلى أن ما يبدو خيطا هشا إنما هو في حقيقة الأمر شديد القوة، بينما من المسلّم به أن بيت العنكبوت ضعيف غاية الضعف، نجد في التراث الإسلامي تلك القصة الجميلة عن العنكبوت التي غطت ببيتها باب الغار حيث قضى فيه النبي ﷺ ومعه أبو بكر الصديق ليلتهما وهما في طريقهما إلى يثرب. وهكذا يمكن النظر إلى العنكبوت على أنه رمز لإرادة الله تعالى. وفي قصيدة جميلة للشاعرة الفارسية پروين اعتصامي

(ت١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م) تصف العنكبوت التي تعمل دون كلل أو ملل بأنها "نسّاج الله". ولكن بصفة عامة يوجه الشعراء وغير الشعراء انتقادهم للعنكبوت، ويحذرون القارئ من الانغماس في أعمال دنيوية ليس لها من جدوى، ولا تعود عليه بنفع كثير أو قليل.

تلهث الأنفاس وراء مشاق أعمال الدنيا

مثلما ينسج العنكبوت بيته بما يفرزه من لعاب.

النملة من المخلوقات الضئيلة التي يرد ذكرها كثيرا، في قصة جميلة عن سليمان عليه السلام، النبي والملك: ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ (سورة النمل، الآية ١٨) . الحديث بين النبي العظيم عليه السلام ومخلوق صغير متواضع صار مصدر إلهام لكثير من الشعراء في قصص وصور مجازية وأمثال. الكثير من أولئك الشعراء شبهوا أنفسهم بنملة ضعيفة صغيرة تأمل رغم عجزها وضآلة شأنها أن تحظى بالقبول في حضرة الحاكم أو المحبوب. وقيل إن النمل قدّم إلى سليمان عليه السلام بذرة زهرة اللوتس، وفي رواية أخرى قدم إليه ساق جرادة، وصارت ساق الجرادة مثلا للذي يقدم هدية لا قيمة لها إلى شخص عظيم الشأن، هدية صغيرة في ظاهرها ولكنها نبيلة المقصد، لأن حمل ساق الجرادة عبء ثقيل على نملة ضئيلة. ويذكر الدميري أن النملة أكثر المخلوقات عرفانا بالجميل. أضف إلى ذلك أن النملة رغم جسمها الضئيل كثيرًا ما توصف بالقوة والشجاعة،

لأنها تستطيع أن تحمل على ظهرها ما هو أكبر منها بكثير. ويقال إن أحد الأولياء الصالحين بارك أحد الحكام داعيا له"أدعو الله أن يجعلك قويا كالنملة" ثم شرح هذا الدعاء الذي يبدو في ظاهره بلا معنى، للحاكم الذي اختلط عليه الأمر.

بينما يعتبر النمل بصفة عامة مخلوقا طيبا وقويا ومجتهدا، يراه بعض الكتاب جشعا شحيحا، يُكدِّس الطعام تحت الأرض ليقتات عليه في شهور الشتاء. ويحفل الأدب الفارسي بالقصص التي تقارن بين ذلك المخلوق الضئيل الذي يتسم بالبخل والتقتير، والبلبل وغيره من الطيور المغردة التي تقضي أيام الصيف تغني سعيدة تتجول بين الحدائق تستمتع بما فيها من جمال.

إن كان النمل يسترعي الانتباه كحشرة طيبة وكريهة في آن معاً، فإن حشرة أخرى ممدوحة في القرآن الكريم، ألا وهي النحلة التي يبدو أنها تتلقى الوحي الإلهي في سورة النحل﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ (سورة النحل، الآية ٦٨). وكلمة "أوحى" ، التي تختص عادة بالوحي الذي ينزله الله على الأنبياء، تجعل للنحل مكانا متميزا في مملكة الحيوان.

ولا يقتصر ما تصنعه النحل من شراب على منافع طبية فحسب ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ (سورة النحل،

الآية ٦٩)، بل كذلك لأن الرسول ﷺ يحب العسل، وهذا ما دفع بعض الأولياء لابتكار قصص وقصائد شيقة عن النحل، فقيل إن النحل عاون علي بن أبي طالب رضي الله عنه في إحدى المعارك، وأن ملك النحل "اليعسوب" (وكان من المعتقد حينذاك أن للنحل ملكا حاكما وليس ملكة أنثى) أدى دورا في وصف قيادة علي رضي الله عنه وقوته في زمن الحرب. (وجدير بالذكر أن الأوربيين لم يدركوا أن ملكة النحل أنثى وليست ذكرا إلا بعد قرون عديدة، (الكلمة الألمانية للملكة der weisel تستخدم أداة التذكير). وحول النحل تدور حكايات لطيفة، عرفها الأناضول في القرن الرابع عشر الميلادي، كما كانت موضوعا لقصائد شعبية في السند في القرن الثامن عشر الميلادي، منها حكاية اكتشاف العسل: يحكي شاعر أنه ذات يوم وفد ضيوف على النبي ﷺ، فلم يجد ما يقدمه لهم مع الخبز - لا حلوى ولا زبد ولا أي شئ آخر - وفجأة ظهرت نحلة لتعرض المساعدة، وسألت النبي ﷺ أن يرسل أحد الصحابة معها. فرافقها علي رضي الله عنه، وعاد معها بقطعة كبيرة من العسل أخذتها من شجرة، وتذوّق النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه ذلك السائل الغريب، ولدهشتهما كان شديدة الحلاوة، وشرحت النحلة أن النحل عندما يجمع الرحيق من الحقول، يردد باستمرار «الصلوات الشريفة» على النبي ﷺ، وبذلك يصبح العسل حلوا. ويوصي الشاعر الأناضولي يونس إمري (ت٧٢٠هـ/١٣٢١م) أن يسير الناس جميعا على هذا النهج بأن يصلّوا على النبي ﷺ في كل الأوقات حتى تصبح لهم حلاوة.

يُذكر العسل كدواء شافٍ، وأحيانا يمزج بالخل، وكثيرا ما نجد إشارة إلى العلاقة بين الشمع والعسل، في إحدى القصائد الفارسية من العصور الوسطى تبكي الشمعة وهي تنفصل عن العسل الذي كانت تحتضنه، لا عجب لذًا أن يوصف الزعيم الروحي بأنه مثل النحل، يعطي حلاوة روحيّة لمريديه.

وبينما يكال المديح للنحل، فإن قريبها : الدبّور ينال القدر الأكبر من الكراهية والازدراء. وفي الشعر، خاصة الشعر الفارسي، حكايات عديدة يشبّه فيها الدبور بالطاغية أو بأشد الأعداء خطرا . وعندما لا ينصت المرء لتحذير زوجته له بأن يزيل عش الدبابير من سقف البيت، يكون عقابه اللدغ الموجع من تلك الحشرة، إذ كان ينبغي عليه أن يقتل عدوه ضربة لازب. وهذه من بين القصص التي يحكيها الشاعر الفارسي سعدي (ت ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م). إذ يقول في إحدى قصائده:

حقا إن الطاغية مثل الدبور

دائما يلقي في قلبك الخوف والهلع

ولكن حين تتغلب على صبرك ذات يوم

عندئذ ستسحق رأسه بقدمك دون رحمة

ثمة حشرات أخرى، لا تزال أمامنا الفراشة. يختلط الأمر على الفراشة فيما يبدو، إذ تدور دون أن يكون لها من هدف أو مقصد، وقد اعتبرها أبو حامد الغزالي (ت٧٩١هـ/١١١١م) مستندا إلى إشارة في القرآن

الكريم، مخلوقا تعيس الحظ يجانبه التوفيق. لكن الفراشة عندما تلقي بنفسها في لهب الشمعة تبدو أشبه ما تكون بالعاشق المخلص، وقد اكتسب ذلك التشبيه شهرة في ألمانيا، واستخدم الشاعر الألماني جوته صورة الفراشة التي تضحي بحياتها كي تتحد مع معشوقها: لهب الشمعة.

يصف جوته في إحدى قصائده في "**الديوان الشرقي للمؤلف الغربي**"، هذا الفناء في المعشوق بعنوان " الشوق المبارك"، وقد عثر جوته على تلك الصورة في ترجمة المستشرق النمساوي جوزيف فون هامربورجستال Joseph Von Hammer-Purgstall قصيدة للشاعر الفارسي حافظ، الذي استخدم القصة كما استخدمها مئات من الشعراء قبله في التراث الفارسي. يرجع أصل تلك القصة إلى كتاب صغير للصوفي حسين بن منصور الحلاّج، الذي أعدم في بغداد عام ٣٠٩هـ/٩٢٢م. ويسمى "شهيد العشق الإلهي"، ترك لنا الحلاّج وصفا لمصير الفراشة العاشقة في "**كتاب الطواسين**"، الذي ربما كتبه في السجن، ونشره لويس ماسنيون Louis Massignon عام ١٩١٣. يصف الحلاج في نثر جميل مقفى، كيف تدور الفراشة حول الشمعة ثم تعود لتحكي لأخواتها عن تلك التجربة. ويمضي الحلاّج شارحاً أن ضوء الشمعة هو "علم الحقيقة"، وحرارتها هي "حقيقة الحقيقة"؟ والاتحاد معها هو "حق الحقيقة". وإذ يشتد بها الشوق إلى "حق الحقيقة" تُلقي بنفسها في اللهب، لا تتحدث أبدا مرة أخرى ولا تعود إطلاقاً إلى الصور الخارجية، إلى الكائنات المخلوقة.

هكذا تكاد الفراشة تصبح عند جميع الشعراء في التراث الفارسي التركي، وفي التراث الإسلامي الهندي، رمزا للروح البشرية، لأنها في شوق إلى الاتحاد مع المعشوق الإلهي، إنها رمز في موضعه، إذ كانت الفراشة رمزا للروح عند اليونان. كتب شاعر هندي في القرن الثامن عشر:

الحب كامن في قلب عاشق مخلص

الفراشة ليست بحاجة إلى من يعلمها كيف تحترق.

الشاعر إقبال، الذي يحرص على استخدام الرموز التراثية بينما يسبغ عليها معاني جديدة، يقارن بين الفراشة ودودة الكتب. دودة الكتب المسكينة على قدر كبير من العلم، تتخذ لها عشًا في المخطوطات القديمة من مؤلفات الفارابي وابن سينا، لكنّها لم تذق قط نار العشق، أما "الفراشة نصف المحترقة" فتعلّم دودة الكتب المسكينة القارئة المحترفة، كيف تلقي بنفسها في اللهب، ومن ثم تنال بموتها حياة خالدة.

رغم ذلك كله لا ينظر إقبال إلى الفراشة كحشرة مثالية، إقبال يفضّل اليراع، اليراع يشع نورا، لا يحتاج كالفراشة إلى نور خارجي، اليراع مثل أولياء الله الصالحين الذين يحملون في قلوبهم نارا مقدسة. وعندما نتصور مشهد ألاف اليراعات فيما مضى من السنين على ضفاف القناة في مدينة لاهور، ندرك أن إقبال، الذي عاش في لاهور، استلهم ذلك المشهد عندما اختار اليراع دون غيره من الحشرات.

أما السمندل، فتقول الأساطير الشرقيّة إنه يعيش في النار، ويجد متعته في حرارتها. ومن الغريب أن السمندل يعتبر من الطيور "مرغ سمندر" وليس من الزواحف، بل يتحدث الشعراء في شبه القارة الهندية مثل "ميزرا غالب" (ت١٢٨٥هـ/١٨٦٩م) عن ريش ذلك السمندل!

لا نجد ذكرا لزواحف أخرى إلا في النزر اليسير. لم أصادف الضفادع في **مثنوي** جلال الدين الرومي وفي الشعر الشعبي في السند. أما الأفاعي فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، ألم تتحول عصي السحرة إلى حيات التهمتها عصا موسى ولم تبق على شيء منها؟ كذلك تذكر القصص الشعبية أن إبليس دخل الجنة متنكرا في صورة أفعى صغيرة حملها طاووس إلى الجنّة. لذلك تعتبر الأفاعي، مثلما هو الحال في التراث الغربي، تجسيما للشر.

من ناحية أخرى تعتبر السحالي دائما من المخلوقات الطيبة. تقول حكايات الشعبية إن السحالي الخضر آمنت بالنبي ﷺ وصلّت عليه، لذلك تسمى السحالي في اللغة السواحيلية: "مجوسي مؤمني" السحالي المؤمنة. واقتصر الازدراء على السحالي السود وحدها، أما السحالي الخضر فهي موضع تقدير في الحكايات الشعبية.

ولا يغرنك كثرة الحديث في الأدب عن الحشرات وغيرها من الحيوانات الدنيا، فإن الطيور هي المخلوقات المفضلة لدى الشعراء

والمفكرين. سبق أن أشرنا إلى مفهوم الروح الطائرة، وهي فكرة ليست بالجديدة إذ عرفت منذ القدم، وشاعت على ما يبدو في تراث الأديان، ففي سورة النمل أن الله تعالى أنعم على سليمان عليه السلام بمعرفة لغة الطيور أو "منطق الطير" ﴿ وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين﴾ (سورة النمل، الآية ١٦). وقد استعار فريد الدين العطار في وقت لاحق تعبير "**منطق الطير**" في قصته الرمزية الرائعة عن حج الطيور، وربما تأثر العطار على نحو ما برسالة الغزالي عن الطيور: "رسالة الطير". وقد استخدم أحد معاصري الغزالي فكرة الروح كطائر ولكن على نحو مختلف، ذلك هو الشاعر والصوفي عبد المجيد المجدود السنائي (المتوفى ٥٢٥ هـ/ ١٣١١م) المعروف بأنه نظم أول مثنوي فارسي في موضوعات دينية: "**حديقة الحقيقة**". ألفه في غزنه التي تقع في دولة أفغانستان الحالية. وقد نظم السنائي قصيدة طويلة بعنوان " تسبيح الطيور"، "ترجم" فيها مختلف أصوات الطيور إلى عبارات بلغة البشر. وتستحق تلك القصيدة دراسة متأنية من المتخصصين في علم الطيور وفي فقه اللغة. على أن مجرد القراءة السطحية لتلك القصيدة الصعبة تظهر ما للطيور من أهمية في التصور الديني للعالم عند الكتاب الفرس. وهذه الأهمية أمر طبيعي، لأنه ورد في القرآن الكريم ذكر الطيور بين المخلوقات التي تسبح بحمد الله: ﴿ ألم تر أن الله يسبِّح له من في السموات والأرض والطيرُ صافّات، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما

يفعلون﴾ (سورة النور، الآية ٤١) وفي سورة الأنعام شُبِّهت الطيور ببني الإنسان ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ (سورة الأنعام ، الآية ٣٨)، وينسجم هذا مع تشبيه الروح بالطائر السجين في الجسد مثلما يسجن طائر في قفص. ولأنه من أفعال الخير تحرير الطيور من أسر أقفاصها، كذلك تنتظر الروح تلك اللحظة السعيدة التي يتحقق لها فيها الخلاص من سجن البدن. وثمة قصيدة بديعة من العصور الوسطى يكثر الاستشهاد بها في الكتب الدينية العربية:

قل لإخوانٍ رأوني ميّتا

ليس هذا الميت والله أنا

أنا عصفور وهذا قفصي

طرت منه فتخلّى رهنا

ويحب الأطفال اللعب مع الطيور التي يصيدونها ويضعونها في أقفاص، ويبدو أنهم لا يحسنون معاملتها (كما رأينا في قصة الزمخشري) فمن التشبيهات الشائعة تشبيه المحب بطائر وقع في يد طفل، الطفل يعبث به دون أن يقيم لمشاعره وزنا .

لبعض الطير مكانة خاصة في الأدب. فللبلبل مرتبة الصدارة في التراث الفارسي والتركي، وكذلك في الشعر الأوربي القديم، ومن أروع وأجمل

القصائد تلك التي كتبها في العصور الوسطى الشاعر التركي يونس إمري (ت ٧٢٠ هـ/ ١٢٣٠م) يصف فيها بلبلا شاكيا، واللازمة التي تتردد في القصيدة:

لماذا نواحك أيها البلبل!

البلبل أفضل رمز للروح، تجسيد للشوق والحب الخالد. ولا تخلو قصيدة حب في الشعر الفارسي أو الشعر التركي من الجمع بين "الوردة" (الحب الخالد) و"البلبل"، ومما ساعد على الجمع بين اقتران الوردة والبلبل تشابه الإيقاع الصوتي للفظين، (في التركية كل (وردة) - وبلبل). بل مضى الشعراء الفرس إلى ما هو أبعد من ذلك، تصوروا أن برعم الوردة هو قلب البلبل الباكي:

أيها البرعم هل أنت قلب البلبل الباكي؟

وهل يمكن للمرء أن يصف ما للوردة من جمال وضّاء؟ يعتقد جلال الدين الرومي أن ذلك ضرب من المستحيل، الجمال الإلهي أمر يعجز عنه الوصف. لذلك علينا أن نقنع بوصف الشوق الأبدي الذي يعبر عنه البلبل:

بالله عليك لا تتحدث عن الوردة

يكفيك الحديث عن البلبل الذي يشكو النأي عن الوردة!

ويبدو منطقيا - في معجم الشعر على الأقل- أن قطرات الندى التي تتلألأ على أوراق الشجر في الصباح الباكر، ليست سوى "دموع البلبل"، الذي

يغرد أهازيج لانهاية لها من التوق المحروم، يذرف الدمع باكيا، في نهاية ليلة أخرى من ليال قضاها بلا أمل.

البلبل هو العاشق، ولهذا فهو الطائر الأثير عند المحبين في جميع أرجاء الدنيا، ومن أسمائه في الفارسية كلمة: "هزار"، التي يمكن أن تدل على الرقم "ألف"، لأن أغنيات الحب التي يغرد بها البلبل تتوالى آلاف المرات أمام الوردة بأكمامها المائة.

طيور أخرى تتمتع بأصوات جميلة ولم تنل من اهتمام الأدباء ما ناله البلبل، من بين تلك الطيور: الشحرور، الذي رأى فيه بعض الكتاب واعظا يرتل كلمات الورع والتقوى من فوق منبره، ذاك المنبر هو الشجرة.

في التراثين العربي والفارسي أسماء عديدة للصقر. ونصادف إشارات عديدة عن تعليم وتدريب ذلك الطائر المعتد بنفسه. وكان تدريب الصقور (البيزرة) ولا يزال من الهوايات المحببة في الشرق الأوسط، ولا ننسى أن من أهم الكتب الأوروبية في العصور الوسطى، تلك الرسالة المزخرفة عن "**فن الصيد بالصقور**" من تأليف الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني Frederic II، الذي عاش في صقلية واشتهر بعلاقته الحميمة مع المسلمين وبحبه للثقافة الإسلامية. الصقر من الطيور المفضلة في كتب الصوفية باللغة الفارسية، يذكر بعض الشعراء، في تورية لطيفة، أن الصقر، ويسمى في اللغة الفارسية "باز"، سمي كذلك لأنه "يعود" إلى صاحبه الأوّل،

وتعني تلك العودة بالفارسية "باز أياد"، و فكرة الطائر المخلص الذي يتوق دائما للعودة إلى يد سيده، تشكل أساس الصور الشعرية التي تنسج حول الصقور. الصقر عند الصوفية روح ، تجسيد "النفس الأمّارة " التي يمكن بالتدريب الطويل والشاق أن تتحول إلى "نفس مطمئنة"، عندئذ تدعى للعودة إلى سيدها، كما جاء في سورة الفجر، ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾(الآيتان ٢٧ و٢٨). وقد أصبح الصقر، الذي يجسد الروح، موضوعا لقصص وحكايات كثيرة، خاصة حكايات شهاب الدين السهروردي شيخ الإشراق. ونجد الحديث عن الصقر في كل أشعار العطّار، وفي مؤلفات جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) طائفة من أروع قصص الصقور، من بينها تلك القصة المؤثرة عن صقر عزيز أبيض اللون سقط في يد عجوز شمطاء لم تعرف قيمته، قطعت جناحيه ومخالبه، وحاولت أن ترغمه على أن يشرب حساء المعكرونة! وعندما أبى أن يفعل صبت العجوز ذلك الحساء المغلي على رأسه، عندئذ تذكر سيده السابق العطوف فاشتد شوقه للعودة إليه. قصة رمزية طريفة عن الروح التي تسقط في عالم المادة، حيث لا يدرك أحد أنها روح عزيزة، فتعاني على أيدي حمقى يعاملونها وفق نهج مادي.

الشاعر محمد إقبال هو أكبر المعجبين بالصقر كرمز للمؤمن الحقيقي، ويحفل شعر إقبال، سواء بالأردية أو الفارسية، بإشارات إلى قصص الصقر، بوصفه الرمز الأصيل للمؤمن الدؤوب الذي لا يقنع بصيد

صغير، بل يتوق دوما إلى "الله وملائكته"، أي يضع لحياته أسمى الأهداف وأنبلها. (وتجدر الإشارة عرضا إلى انتشار لوحات فنية في فترة ما في باكستان تصور الصقر باسطا جناحيه في عباب السماء، بل انتشر بيع صقور محنطة للاحتفاظ بها كتذكار). أما جلال الدين الرومي فقد رأى في الصقور جانبا آخر، هو الحب، وهو أكبر طاقة في الكون، يمكن أن تشبه بصقر يمسك بالمرء فجأة ويطير به إلى آفاق جديدة، إلى عالم الروح الأبدي.

هناك تفسيرات أخرى لموقف الصقر من الحياة ومن الوجود. يقص علينا الدميري حكاية صاغها العطار شعرا قبل قرون عديدة، اتهم الصقر الدجاجة بأنها ناكرة للجميل، الناس يحسنون رعاية دجاجهم، يطعمونه ويعتنون به، رغم ذلك يجري الدجاج دائما بعيدا عن أصحابه. أما الصقر، على قدر ما يعتز بنفسه ويعتد بها، فيعود إلى سيده رغم ما تحمله من مشقة التدريب واقتفاء الفريسة. ولكن الدجاجة ترد بسؤال بسيط: "هل ذهبت مرة إلى السوق حيث يعلقون الدجاج المذبوح من ساقيه في المتاجر؟"

ويعود بنا الحديث إلى الدجاجة. يقينا إنها ليست بالطائر الرومانسي، إلا أنها كانت مصدر إلهام لبعض الكتاب. بل رُفع مقام الديك إلى منزلة المخلوقات السماوية. وفي القصص الشائع أن ديكا أبيض اللون يعيش في الجنّة، وعندما يؤذّن تعرف جميع المخلوقات، إلا الإنسان، أن ساعة البعث

قد حانت. وكنية الديك " أبو اليقظان" تبرز دوره كساعة منبهة، لأنه يوقظ النائمين. لهذا السبب قيل عن الديك إنه عدو المحبين، لأن صياحه يقطع عليهم نوم العشّاق، وينذرهم بأن قد حانت ساعة الفراق. لذلك نجد لوحات من المنمنمات، خاصة في مخطوطات المغول، تصور عاشقا يحاول أن يطلق النار على ديك، لأنه فرّق بقسوة بينه وبين حبيبته. وفي قصة أخرى أن الإمبراطور المغولي هومايون Humayun (حكم من ٩٣٦هـ/١٥٣٠م إلى ٩٦١هـ/١٥٥٦م) وضع ديكا في حجرة الخدم ليوقظهم لأداء صلاة الفجر.

والديك مثل كثيرين غيره في مملكة الحيوان له جوانب سيئة. فهو سيئ الخلق مغرم بالملذات الحسيّة، لا يترك دجاجة دون أن يطاردها، ولا يعرف إلى الوفاء سبيلا. ولذلك نظم الشعراء الفرس القدامى أبياتا تسخر من الديك غير الوفي الذي يأتي من الخطايا الكثير لينتهي به المصير إلى أن يذبح ويؤكل.

نصادف طيرا آخر ترتبط حياته بالريف، ألا وهو طائر اللقلق. وقد نظر المسلمون إلى اللقلق على أنه طائر ورع، يتوشح بالبياض مثل الحجاج، مداوم على ترديد الشهادة: الملك لك الحمد لك العزّ لك. هكذا يبرهن على أنه حاج مخلص، ألا يهاجر عاما بعد عام من موطنه إلى مكّة؟ الا يعيش في المآذن عادة؟ (في الغرب كثيرا ما يتخذ اللقلق عشّه في أبراج الكنائس). محمد عوفي (ت ٦٢٠ هـ/١٢٣٢م)، في مختاراته من الشعر الفارسي القديم

أورد "قصيدة اللقلق":

اللقلق يأتي دائما بالنوروز بأخبار طيبة

اللقلق يدخل السعادة على قلوبنا الحزينة بما يحمله لنا من أخبار...

لأن طائر اللقلق عادة ما يعود في شهر مارس إلى المناطق الشمالية، أي في وقت قريب من أعياد النوروز (رأس السنة الفارسيّة) في فصل الربيع. وقد أوحت عادة اللقلق بالمثل القائل " يفر منه العدو مثلما يهرب اللقلق من رياح الخريف". بيد أن القصص الشعبي في مدينة أربيل، شمال العراق، تعتبر اللقلق طائرا منغمسا في الملذات الحسية: كان اللقلق في الأصل رجلا طلب من خادمته أن تصعد الدرج وتهبطه دون أن ترتدي ملابسها الداخلية، وصار ينظر إلى "أشياء ليس من اللائق النظر إليها"، وهو يضحك ويضحك، فمسخه الله لقلقا يكون صياحه صدى لضحكه الدنيء.

وإذا كان البلبل هو الطائر المفضل لدى الشعراء الفرس، فإن التراث العربي يكثر احتفاله بذكر الحمام. ويذكّر صوت الحمام النائح الشعراء العرب القدامى بأحزانهم. كأن الحمام يترجم بكاءهم من وحدتهم إلى لغته. هديل الحمام في الصباح كان دائما من الموضوعات المحببة إلى قلوب الشعراء أينما كتب الشعر العربي. كذلك أصبحت الحمامة المطوقة رمزا يجسد الحب الراسخ: صار طوق الريش الأسود حول عنقها رمزاً لرباط الإخلاص للحبيب، لذلك اتخذه علي بن أحمد، ابن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) عنوانا لكتابه الرائع عن الحب العذري "**طوق الحمامة**".

من الناحية العملية الحمام هو الطائر الذي ينقل الرسائل. الحمام الزاجل كان أفضل وسيلة لحمل الرسائل إلى أماكن بعيدة، وكانت الرسائل تكتب على ورق رقيق للغاية وتوضع داخل اسطوانة من الفضة دقيقة الحجم تربط تحت جناح الحمامة. ومن هذه الممارسة صار الحمام بمثابة الطائر الذي ينقل رسائل الحب والشوق إلى المحبوب في أرض بعيدة. وفسر الفرس هديل الحمام بأنه يقول " كو كو" التي تعني بالفارسية أين؟ أين؟ أين المحبوب؟.

في فترة لاحقة ذهب الشعراء الفرس والهنود الذين كتبوا بالفارسية إلى حد تشبيه الحمام الرمادي اللون، الذي يرفرف بجناحيه حول شجرة السرو، بالفراشات التي تحترق رمادا بلهب الشمعة (وتشبيه الشمعة بشجرة السرو من التعبيرات الشائعة في الفارسية لأنهما تتشابهان في شكلهما النحيل).

ولا ينبغي أن ننسى العبارة الفارسية "كبوتر حرم" عن الحمام في حرم مكّة المكرّمة، حيث لا يجوز قتل أو جرح أي حيوان في ذلك الحرم المقدس. وفي مكة المكرّمة الكثير من الحمام. وينظر العاشق إلى قلبه كطائر يرفرف في حرم المحبوب، ليظل هناك مثله مثل حمامة تعيش سعيدة هانئة في حرم مكّة.

من الحمامة ننتقل إلى طائر آخر هو البطّ. يأتي ذكر البط في أمثلة قليلة نادرة في الشعر الصوفي على أنه شبيه بالإنسان، أو بالأحرى يشبّه

الإنسان بالبطّ. أليس الإنسان كائنا غريبا يعيش مثل البط نصفه في الماء ونصفه على اليابسة؟ وهكذا بنو البشر مقيدون بأغلال المادة على الأرض، ولكنهم يملكون الجرأة على استكشاف محيط ليست له نهاية، هو عالم الروح.

وأما الإوزة ، فلا نجد لها ذكرا في الشعر الرفيع قط، على أن الشعر الشعبي يضرب بالإوزة المثل في العديد من التشبيهات. الإوزة في شبه القارة الهندية نقيض البجعة النبيلة، التي تستطيع أن تخرج اللآلئ من أعماق المياه. وكلمة هانز hans ، التي تترجم عادة إلى "بجعة" يمكن كذلك أن تعني إوزة ضخمة مهيبة، وهذا هو الحال في التراث الشعبي الهندي، حيث يؤدي الإوز دورا هاما. أما في التراث التركي فنصادف الإوزة في صورة مختلفة، وقد ألف الصوفي التركي قايغوسز عبدال (ت ٨١٨ هـ/١٤١٥م) في القرن الخامس عشر الميلادي أغنية طريفة تحكي مغامراته مع إوزة عنيدة، اشترى الإوزة من امرأة عجوز (وهي دائما رمز للعالم المادي في الشعر) وحاول طهيها ، ولكن اللازمة بعد كل بيت هي :

طهيتها أربعين يوما ولمّا تنضج!

النفس، الروح الدنيا، لا يمكن التغلب عليها حتى بعد خلوة الأربعين، بعد اعتزال عالم المادة أربعين يوما كاملة.

وإذا كانت الإوزة بصفة عامة مخلوقا كسولا عنيدا، فإن البومة طائر شرير ونذير شؤم. إنها تعيش في الخرائب، حسب ما ذكر لنا إلياس بن يوسف

نظامي (ت ٦١٢هـ/١٢١٧م) في ملحمته البديعة: **هفت پيكر** "الصور السبع" أو "الجميلات". ومن أشهر قصص نظامي تلك التي تحكي عن لقاء بين اثنين من البوم يستعد طفلاهما للزواج: يعد والد العريس أن يكون المهر عددا كبيرا من الخرائب، شريطة أن يظل الملك الحالي في الحكم، فمن المؤكد أن تتحول البلاد برمتها إلى خرائب في ظل حكمه. ونصادف هذا المشهد الشديد الانتقاد للحكام الذين يضيعون ثروات بلادهم سدى، في العديد من مخطوطات شعر نظامي. وتبدو الجوانب الشريرة للبوم واضحة في عنوان رواية صادق هدايت (ت١٣٧١هـ/١٩٥١م)"**بوف كور**" أي "البومة العمياء" وهي من أولى الروايات المكتوبة باللغة الفارسية في إيران الحديثة والتي نالت شهرة عالمية.

ومن الطيور الكريهة الأخرى الغراب. أليس الغراب هو الذي ساعد قابيل على أن يدفن شقيقه هابيل، وهكذا ارتبط ذكره بالموت؟ ﴿ فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين ﴾ (سورة المائدة، الآية ٣١). والغراب طائر يظهر في الشتاء، خاصة في المناطق الشمالية من العالم الإسلامي، من تركيا إلى إيران وآسيا الوسطى. يصف العرب الغراب بأنه "غراب البين" ، وظهور الغراب عند الشعراء الفرس نذير بدنو أجل الزهور الجميلة ومقدم شهور الشتاء الباردة الطويلة. كذلك يمشي

الغراب في خيلاء كأنه واعظ يرتدي عباءته السوداء، لا يحب الأغنيات الجميلة التي تغرد بها طيور الصيف، ولا يعير الجمال أدنى اهتمام. لا يعرف الغراب مدى قبحه، كما يقول الرومي:

لو عرف الغراب كم هو قبيح، لذاب حزنا مثلما يذوب الثلج!

على النقيض من تلك الصورة السيئة للغراب، يعتبر طائر الكانك في السند رسول العشّاق، تنادي الفتيات اللائي يشتد بهن الشوق إلى الحبيب تلك الطيور الرمادية الداكنة المنتشرة في كراتشي وفي بقاع أخرى من وادي السند:

كانك كونشون كري.......

أيها الغراب انحنِ في أدب (أمام الحبيب)

هذا ما تتغنى به البطلة في العديد من الأغنيات الشعبية في السند، وفي قصيدة **ريسالو**، رائعة الشاعر السندي شاه عبد اللطيف (ت١١٦٥هـ/١٧٥٢م)، تدعو البطلة الغربان لأن تلتهم بدنها وهي في الطريق إلى حبيبها، تتمنى أن يأتي إليها الغربان بأخبار حبيبها مقابل أن تطعمهم جسدها، على أن لا تأكل الغربان عيونها، لأن عيونها رأت الحبيب. وتتكرر مثل هذه الصور القاسية في أدب السند، إلا أن الفتيات في تلك القصائد يحببن أن ينسجن خيوطا من ذهب حول أجنحة الغراب، على أن يأتي إليهن بأنباء طيبة من الحبيب الذي اشتد بهن الشوق إليه....

ذكر الهدهد في القرآن مثلما ذكر الغراب (بيد أن الهدهد أسعد حظا)، وقد أطلقت على الهدهد كنية "أبي الأخبار". وكان الهدهد رسولا بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ، لذلك فهو الطائر السفير الذي لا يدانيه غيره في ذلك الدور. ويبدو أن شكله الجميل بالتاج الذي يعلو رأسه يعطيه مكانة متميزة بين الطيور، بل حتى اسمه في العربية، "هدهد" أصبح جزءا من تراث الشعر الألماني، استخدمه جوته في "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي". ويظهر الدور المتميز للهدهد في قصيدة العطّار "منطق الطير". حين تؤدي الطيور شعائر الحج، وتريد اختيار ملك عليها فتلتقي بالهدهد الذي يقودهم إلى ملك الطيور السيمرغ الذي يقص عليهم من القصص ما يعلمهم. أما المراقبون الذين لا يهتمون إلا بالجوانب الدينية أو الصوفية، فهو عندهم كائن قذر كريه الرائحة يتغذى بالديدان الحيّة. ويخاطب الشاعر أولئك المتغطرسين الذين يتباهون بالثروة أو الجمال وبالتيجان على رؤوسهم، قائلا إنهم مثل هدهد على رأسه تاج، وهو مع ذلك قذر كريه الرائحة، في حين أن الصقر الجميل النافع لا يتحلى بشيء من أسباب الزينة.

النعامة من الطيور التي تلفت الأنظار دائما. ليست بطائر وليست من الدواب. والاسم الذي يطلق على النعامة في اللغتين التركية والفارسية يشير إلى سلوكها الغريب، وتسمى في الفارسية "شترمرغ" وفي التركيّة "دوه

قوشي"، وتعني كلتا الكلمتين " الجمل الطائر" لأنك إذا طلبت من نعامة أن تطير أجابتك قائلة: ألا ترى أنني جمل؟ وإذا طلبت منها أن تحمل أثقالا مثل غيرها من دواب حمل الأثقال أجابتك : لا - ألا ترى أنني طائر من الطيور؟" وهكذا أصبحت النعامة في الأدب في فترة لاحقة مثالا للانتهازي، الذي لا يريد في الحقيقة أن يقوم بأداء أي عمل مفيد. وتحيط بهذا الجمل الطائر العديد من غرائب الحكايات: فمن المعروف أن النعامة تلتهم كل ما تصادفه في طريقها، لذلك لم يكن من العسير أن نصدق أنها ابتلعت جمرا مشتعلا، أو أن الجمر المشتعل هو في حقيقة الأمر طعام النعامة الوحيد.

قلائل هم الذين يعتبرون صوت الببغاء جميلا، ولكنه يُسمى في التراث الفارسي "ماضغ السكر" لأنه يستطيع أن يتعلم الكلام. وساد الاعتقاد بأن الببغاء يتعلّم الكلام بالنظر إلى مرآة يجلس خلفها شخص يتكلم في بطء، وهكذا يرى الببغاء نفسه في المرآة، بينما ينصت إلى المتحدث معتقدا أن الببغاء الذي يراه أمامه في المرآة هو الذي ينطق بتلك الأصوات، ويشجعه ذلك على أن يقلده. وفي نظر الصوفية يمكن أن يكون ذلك هو حال الإنسان. الببغاء يقلد صوت سيده، من ثم يتعلم على الأقل شيئا من الحكمة الروحيّة، وإن كان لا يتلقى وحيا مباشرا بل يردد فقط ما يصل إلى سمعه.

الببغاء طير هندي. العديد من القصص التي تحكى عن الببغاء تؤكد تلك الصلة. تحكي قصة جلال الدين الرومي "التاجر والببغاء" عن تاجر

يذهب إلى الهند، ويعد قبل سفره بأن يعود محملا بالهدايا لأهل بيته جميعا، ومن بينهم الخدم والحيوانات. طلب الببغاء من التاجر أن يحكي لأقاربه في الهند عن حاله، حبيس قفص يتوق إلى الحرية وإلى صحبة الأصدقاء. وعندما وصل التاجر إلى الهند بر بوعده، وحكى للببغاوات البرية عن قريبهم الحبيس، عندئذ سقط أحد تلك الببغاوات من فوق غصن شجرة كان يقف عليه، وكأنه مات. وعندما عاد التاجر من رحلته استجمع شجاعته ليحكي لببغائه الأليف تلك القصة المحزنة، ولما سمعها الببغاء وهو في قفصه سقط هو الآخر ميتا، عندئذ انتاب التاجر حزن أليم لما حل بالببغاء نتيجة سماعه الحكاية فأخرج الببغاء من القفص، ويا للعجب العجاب، طار الببغاء الذي حُسب في عداد الأموات إلى أقرب غصن شجرة، لقّن سيده درسا، أنه وعى الرسالة التي بعث بها إليه قريبه الطليق في الهند، تلك الرسالة هي "مت من أجل أن تحيا".

هكذا يصبح الببغاء معلما حكيما، وكثيرا ما نجده في الأدب يؤدي هذا الدور، دور المعلم الحكيم. ولعلّ هذا الدور مستمد من التراث الهندي. وكانت القصص السنسكريتية عن الببغاء الحكيم معروفة على نطاق واسع، أعاد الشيخ ضياء الدين نخشبي (ت٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م) قصصها بالفارسية في "**طوطي نامه**" أو "كتاب الببغاء"، الذي زُيّن بالصور في القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده. في تلك القصص وفي قصص أخرى شبيهة يبدو

الببغاء كارها للنساء، يمنع زوجة سيده الشابة من لقاء حبيبها في غيبة الزوج، وينقل قصة اللقاء الذي لم يتم إلى الزوج، الذي يقتل زوجته جزاء لها. كثيرا ما تقوم الببغاوات في الحكايات الشعبية الهندية بدور المعلم الشيخ المتجهم. بيد أن الببغاء يمكن أن يقوم بدور المبشر، كما نرى في قصيدة ملحمية ترجع في نشأتها إلى كجارات في القرن الخامس عشر أو السادس عشر من الميلاد، تلك هي "حجة الهند"، حين يقوم فيها ببغاء حكيم بدعوة أميرة هندية وثنية إلى الإسلام ويعلمها أشياء كثيرة من بينها كتاب الصوفي الشهير، نجم الدين رازي المشهور بدايه (ت ٦٥٤هـ/١٢٠٦م) "**مرصاد العباد**"، الذي كتب في القرن الثالث عشر الميلادي، الببغاء في تلك القصة أقل نفورا من النساء منه في قصص أخرى. والعلاقة بين الببغاء ومعسول الكلام والمرايا لا تزال من التشبيهات والاستعارات التي يستخدمها الشعراء، ويزعم شاعر فارسي، من القرن السادس عشر الميلادي أن محبوبته ذات الخدّين الورديين عندما تنظر إلى المرآة تصبح المرآة حافلة بالورود، كذلك عندما يحدق الببغاء في المرآة يتحول إلى بلبل.

أما الطاووس، فهو طائر آخر يرتبط الحديث عنه بالهند، يقول المثل السائر "من يريد اقتناء طاووس عليه أن يتحمل مشاق السفر إلى بلاد الهند". تتناقض الأقوال حول هذا الطائر الجميل. في بعض القصص الشعبية أتى الطاووس بإبليس إلى جنات عدن، فعندما تنكر إبليس في صورة أفعى

صغيرة لم يجد صعوبة في دخول الجنة تحت جناح الطاووس. وهكذا أدى الطاووس أسوأ دور في الأيام الأولى للبشريّة. رغم ذلك يتمتع الطاووس بجمال خلاب ويستخدم ريشه كمؤشرات في ثنايا صفحات النسخ النادرة من القرآن الكريم. لكن الطاووس لا يبدو مغرورا بنفسه. يقص علينا الرومي قصة مؤثرة عن طاووس شوهد وهو ينتف ريشه لأنه السبب فيما لقيه من تعذيب على يد البشر. إن جشع البشر مصدره جمال الطاووس، لذلك يفضل الطاووس أن يعيش مخلوقا بائسا محروما من الزينة على أن يقاسي الأمرين بسبب مظهره الجميل. ولهذا رفض سعدي ما مدحه به بعض القوم:

أبدو جميلا في نظر الآخرين

بينما أفكر في عيوبي الخفية

الجميع يمتدحون بهاء الطاووس وألوانه

بينما يخجل الطاووس من قدميه القبيحتين

يبدو ريش الطاووس في جمال رائع أخّاذ، لكن صوته وقدميه أصبحت مضرب الأمثال في القبح. أتذكر فلاحا عجوزا من الأناضول شاهد طاووسا يزهو بريشه في حديقة الحيوان في أنقرة، ولم يملك أن يتوقف عن الصياح " سبحان الله، سبحان الخالق !" يبدو أنه تصور نفسه في عالم الأحلام.

والطاووس مع كل ما يتمتع به من جمال يأخذ الألباب هو طائر حقيقي ليس من نسج الخيال، محبوب بصفة خاصة في الهند وباكستان.

ولكن هناك طائرا آخر لا وجود له إلا في عالم الأساطير. ذلك هو "هوما"، طائر ضخم يتمتع بمزايا سحرية، فكل من يقف تحت جناحيه يصبح ملكا. ولذلك أصبح رمزا للقوة الروحية والدنيوية. وينسب بعض الكتاب تلك الميزة العجيبة إلى أن الهوما يعيش على أكل العظام فقط، ولا يؤذي أيا من الكائنات الحية، ويقضي أيامه في قناعة كاملة، لذلك صار قادرا على اكتساب الطاقة الروحية.

ويمكن على نحو ما أن نشبه الهوما بالسيمرغ أو العنقاء في التراث العربي، وهي طائر غريب طويل العنق يرد ذكره في العديد من المؤلفات، وكذلك في الرسالة الصوفية لابن عربي (ت ٦٣٨هـ/١١٦٥م) "**عنقاء مغرب**". وللسيمرغ في التراث الفارسي مكانة عظيمة الأهمية. في الملحمة القومية لإيران، "**شاهنامه**" للفردوسي (المتوفى عام ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م) أي "كتاب الملوك" ينقذ السيمرغ البطل "زال" الذي طرده أبوه. أخذ السيمرغ ذلك الطفل وتولى تربيته مع صغاره. وتظهر لنا هذه القصة أوجه الشبه بين السيمرغ والعنقاء أو هما بالأحرى الطائر نفسه، لأن العنقاء أو الطائر الطويل العنق أنثى والسيمرغ كذلك أنثى، إذ تدل سيرته على أنه أم حانية.

ويبدو أن هذه الفكرة، أعني أن السيمرغ أنثى، قد تلاشت إلى حدما، وحسب علمي لا نجد إشارات إلى الصفات الأنثوية للسيمرغ في الحكايات التي ترجع إلى فترة لاحقة. وتحكي الأساطير أن ريشة من ريش السيمرغ سقطت في الصين، وكانت مصدرا لإلهام الفنانين بأروع اللوحات الفنية.

والصين هي البلد الذي اشتهر بفن الرسم والتلوين في التراث الإسلامي. كما ظهرت العديد من الفنون، إلى جانب الرسم، بفضل الريش الرائع الذي يكسو طائر السيمرغ، وهكذا غدت ريشة السيمرغ أساسا للإبداع في جمال الفنون الجميلة كلها. ويقول العطار "إن هذا هو المقصود بالحديث النبوي الشريف "اطلبوا العلم ولو في الصين".

السيمرغ في مؤلفات العطار يمثّل أهم الأدوار وأعظمها سموا، صار رمزا للوجود الإلهي بعد أن يلتقي به ثلاثون طائرا في نهاية رحلة شاقة طويلة تتبدى لهم هويتهم عند اللقاء مع السيمرغ. الأرواح تكتشف هويتها الإلهية.

وأخيرا نصادف طائرا ذا جناحين، يستحق أن نصنفه مع الثدييات، ألا وهو الخفاش. الخفّاش سيئ السمعة، لأنه ليس طائرا و ليس من الثدييات، له جناحان ولكنه لا يبيض مثل الطير بل يلد، ولا يظهر إلا بعد الغروب، مبتعدا بنفسه عن الشمس وأشعتها. وهكذا تحول الخفاش المسكين إلى مخلوق يكرهه الناس، أو على الأقل يخافونه. ورغم ما ورد في نهج البلاغة من وصف للخفاش أقرب إلى الصفات الحميدة، يعطى الكاتب الساخر محمد بن محرز الوهراني (ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) في إحدى "مناماته" الهزليّة انطباعا بالازدراء الشديد لذلك المخلوق المسكين، أن ملك الحيوان يطلب إصدار فتوى بقتل الخفاش.

الخفاش في معظم قصص التراث من مخلوقات الظلام، ومع ذلك صار الخفاش عند الكتاب الفرس بمثابة الطائر الذي وصفه عيسى عليه

السلام بأنه " كهيئة الطير "، جاء في سورة آل عمران ﴿ ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾(الآية ٤٩) أليس الخفاش "كهيئة الطير" وليس طيرا حقيقيا؟ هذا ما يقوله بعض الكتاب الفرس عن الخفّاش. ورغم أن ما كتب عن تجنب الخفّاش للشمس، رأى العطار في ذلك المخلوق الوضيع سعيا إلى الشمس، إنها الشمس الروحية الخافية عن الذين يعيشون في ضوء النهار الساطع. يعتقد العطار أن الخفاش يبحث عن الشمس في منتصف الليل، يبحث عن النور الذي لا يوجد إلا في عالم الروح، وبذلك يصبح الخفاش، في نظر بعض الكتّاب، باحثا منفردا عن الحقيقة والنور.

وما ذا عن ذوات الأربع؟ دواب الحمل والسباع المفترسة والخيول السريعة والأفيال الضخمة؟ نجد لبعضها ذكرا في القرآن الكريم ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾(سورة التكوير، الآية ٥). إنها مثل سائر الحيوان ذات مكانة مهمة في حياة البشر وفي الصور الشعرية. ينسب إلى النبي ﷺ حثه للمسلمين على حسن معاملة الهرّة، وإن لم يكن هذا القول من الأحاديث الصحيحة، فلعله يعبر عن حب المسلمين للهرّة. والأمر كما يقول الدميري "الهرة حيوان متواضع رقيق القلب"، أضف إلى ذلك أنه حيوان نظيف، لعاب

الهرّة لا ينجس، الماء الذي يشرب منه القط هو ماء صالح للوضوء. نلاحظ أن الهرّة تدفن في عناية ما يخرج منها من غائط، مما يجعلها نموذجا لبني البشر، الذين يجب أن يجتهدوا في ستر أعمالهم وأفكارهم الشريرة. ومن أكثر القصص الشعبية انتشارا في الأيام الأولى للإسلام، أن النبي ﷺ أراد ألاّ يزعج هرته، التي نامت على أكمام عباءته، فبدلا من أن يوقظها عندما نهض للصلاة قطع أكمام العباءة ليتركها نائمة. ونجد هذه القصة في كتب القصص الأوروبية عن الإسلام، وهي كتب نادرا ما تحوي مديحا للنبي ﷺ. كذلك جاء في الأدب الألماني أن النبي ﷺ كان يربت على قطته، وكتب جوته في "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي" عن الحيوانات التي دخلت إلى الجنة، وذكر بينها الهرّة لأنها: "حيوان باركه الله وربت عليه النبي".

يحكي الصوفي العظيم جلال الدين الرومي قصة أخرى عن دور مهم للهرّة في حياة النبي ﷺ. ذات يوم جاء ثعبان إلى النبي ﷺ باحثا عن طعام والتف حول خصر النبي ﷺ حتى كاد يعضّه. في تلك اللحظة مر به أبو هريرة رضي الله عنه وفتح حقيبته، وقفزت من الحقيبة هرّة شجاعة مندفعة نحو النبي ﷺ لتقتل الثعبان، ومسح النبي ﷺ على جبهة الهرّة عرفانا بالجميل، لذلك نرى على جبهة كل هرّة أربعة خطوط، دلالة على أصابع النبي ﷺ التي باركت الهرّة، كذلك ربت على ظهرها، لذلك لا تسقط قطة على ظهرها أبدا لأن النبي ﷺ لمس هذا الجزء من جسمها.

ومن أكثر القصص المؤثرة عن الهرّة في الأدب العربي القديم تلك التي تحكي عن صوفي من بغداد، هو أبوبكر الشبلي (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٥م)، الذي مات ورآه أحد أصدقائه في الحلم. وعندما سئل ما ذا فعل الله به، أجاب أن الله أنعم عليه بدخول الجنة، ثم سئل الشبلي في المنام إن كان يعرف سببا لهذه النعمة، وعدد الشبلي كل ما قام به من فرائض الدين، من صوم وصلاة وأداء للحج وإخراج للزكاة، ولكن أياًّ من تلك الفرائض لم تدخله الجنة. أخيرا سأله المولى" هل تذكر يوما باردا في بغداد تساقطت فيه الثلوج، وكنت تمشي ملتحفا بعباءتك عندما رأيت هرة صغيرة ترتعش من البرد، وأخذت الهرة ووضعتها تحت عباءتك الدافئة؟ من أجل هذه الهرة الصغيرة صفحنا عنك".

ومن القصص الأخرى الأقل شهرة، أن مريدي الطريقة الصوفية المغربية "الهداوة" لهم هرر ذات حرمة، كأنها أخوات للفقراء الذين يعيشون على الصدقات، وتعامل تلك الهرر باحترام بالغ، حسبما بيّن رينيه برونل René Brunel في دراسته عن الهداوة..

يعرف الكثيرون تلك القصص القديمة عن " الهرّة والفأر". ومن نماذجها قصّة الحرب بين الهرر والفئران، التي كانت معروفة في مصر القديمة وظهرت في جميع اللغات الشرقية (ومن ثم في كل اللغات الغربية). في الشرق تعتبر قصيدة "الهرّة والفأر" لعبيدي زكاني (ت٧٧٢هـ/ ١٣٧١م)،

أشهر النماذج الفارسيّة. ومن القصص المعروفة على نطاق واسع قصة الهرّة الماكرة التي خدعت الفئران، والفئران الشجاعة التي تجمعت للدفاع عن نفسها، وفي بعض الأحيان يكتب النصر للفئران! أصبحت العلاقة بين الهرّة والفأر مضرب الأمثال. والهرّة التي تغرر بالفأر الضعيف كثيرا ما توصف في الأدب بالنفاق الخبيث. وكما يقول المثل البنغالي: "بعد أن التهمت الهرّة سبعة فئران ذهبت إلى الحج" أو " ذهبت إلى الحج بينما لا يزال ذيل الفأر معلقا من فمها".

ولكن يجب ألا ننسي قصة الرجل الذي أخذ هرته إلى بلد كثير الفئران وليس به هرّة واحدة. باع الرجل هرّته إلى الحاكم وأصبح من الأثرياء، تخلص ذلك البلد من الفئران. وهذه القصة من القصص المعروفة في إنجلترا.

لم يرد ذكر الهرّة في القرآن الكريم، رغم ذلك أحبها المسلمون. والعكس تماما بالنسبة للكلب. تتحدث سورة الكهف عن النائمين السبعة وكلبهم المخلص، وقد بسط ذراعيه على عتبة الكهف ﴿ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا ﴾(الآية ١٨)، ووجد هذا الكلب طريقه إلى ديوان جوته:

الكلب الصغير الذي ساهم مخلصا في نوم أصحاب الكهف

كلب أصحاب الكهف من بين الحيوانات التي تدخل الجنة. وقصص التراث الشعبي تسمي هذا الكلب قطمير، ومن العادات الشائعة في آسيا الوسطى كتابة كلمة "قطمير" على الرسائل أو الصور ذات القيمة الخاصة، وكأن الاسم سيكون حارسا أمينا لها.

ولكن الكلب في الشريعة الإسلامية حيوان نجس، وكل ما يمسه لعاب الكلب يصبح نجسا. ويجب أن يبقى الكلب خارج المنزل، وحتى يومنا هذا نجد أن الضيوف في البلاد الإسلامية ينتابهم الفزع إذا ما رأوا كلبا داخل بيت المضيف. بل هناك من يعتقد أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة.

ورغم ما يقابل به الكلب من ازدراء لنجاسته، أصبح في نظر الصوفية نموذجا للوفاء، هو أكثر الحيوانات إخلاصا: لا يفترق أبدا عن سيده. وقصص الصوفية، خاصة في مؤلفات العطّار، تحفل بحكايات عن كلب يتحول إلى معلم لشخص أصابه داء الغرور، علمه الحيوان الوضيع فضائل الدأب والمثابرة والتواضع والإخلاص، حيث يقضي الليالي يقظا ليحرس بيت صاحبه. وعرف الأدب موضوع الكلب ووفاءه منذ وقت مبكر. وفي القرن التاسع الميلادي كتب محمد بن خلف المرزبان (ت ٣٠٩هـ/ ٩٢١م) رسالة بعنوان "**فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب**". ويحتل حب الكلاب مكانا بارزا في الأدب الفارسي بصفة خاصة، وربما يرجع ذلك إلى

حب الفرس القدماء للكلاب، كانت الكلاب في الزرادشتية من بين الحيوانات المقدسة، وربما تأثر الكتاب المسلمون في إيران بتلك الأفكار القديمة.

ارتباط الكلب بسيده جعل منه نموذجا يقتدي به المحب الذي يفعل كل ما يرغبه المحبوب، والكلاب جزء لا يتجزأ من أغنيات الحب الفارسية، ويتضمن ديوان عبد الرحمن جامي من هراة (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م) أكثر من ثلاثمائة إشارة إلى الكلب، يتحدث فيها عن المحب المخلص إخلاص الكلب لسيده.

وتعبر عن إخلاص الكلب أسماء مثل سگ علي أو كلب علي، عند الشيعة، ولا ننسى عبارة سگ ليلى أو كلب ليلى ، وتطلق على الشخص الذي لا نحبه حقيقة ولكن علينا أن نتحمل صحبته لأنه صديق أو قريب للمحبوب. وهناك قصة عن مجنون ليلى الذي شوهد وهو يقبّل ذراع كلب، وعندما سئل عن السبب في هذا المسلك الغريب أجاب: " لقد مشى هذا الكلب في شارع تسكنه ليلى.

وهكذا يمكن لأقل المخلوقات شأنا أن تصل إلى مكانة رفيعة، وبقدر ما ينال الكلب من ازدراء يجب ألاّ نسيء معاملته. ومن أشهر القصص بين الأتقياء تلك التي تحكي عن امرأة سيئة السمعة. رآها النبي ﷺ وقد صادفها

كلب يلهث عطشا في الصحراء ويسعى عبثا للوصول إلى بئر مياه قريبة. وما كان منها إلا أن خلعت شالها وحذاءها وصنعت منهما دلوا رفعت به قدرا من الماء لتعطيه الكلب الذي اشتد به الظمأ. ويقال إن النبي ﷺ شاهد هذه المرأة فيما بعد ضمن أهل الجنة، فقد أنقذها فعلها الطيب مع الكلب المسكين.

وماذا عن الفأر، الذي سبق أن أشرنا إليه في الحديث عن الهرّة؟ الفأر حيوان جشع، هو في نظر الصوفية رمز للنفس، الروح الدنيا. ويظهر الفأر عادة في قصص كمثال لأولئك الذين يحرصون على تكديس الثروة. في بعض هذه القصص يرى الأبناء في الحلم أن آباءهم البخلاء يتحولون بعد موتهم إلى فئران. والفأر: النفس الحيوانية، يرمز للجوانب المادية الأرضية في حياة الإنسان، كما نرى في قصة طريفة يرويها لنا الرومي. وقع فأر في غرام ضفدع وفي النهاية أقنع الضفدع بأن يربط خيطا حول ساقه ويلفه حول قدمها، حتى لا ينفصلان. وكان أن أمسك أحد الأشقياء بالفأر، ولأن الضفدع مربوطة معه فقد هلكت هي الأخرى، وهكذا تهلك الروح عندما تعتمد على البدن أو على الغرائز الوضيعة.

وما ذا عن أشهر الحيوانات قاطبة في العالم العربي، الفرس النبيل؟ نهى القرآن الكريم عن المبالغة في حب الخيل، يُقال عندما كان سليمان عليه السلام مشغولا بفرسه النبيل وأهمل أداء الصلاة، ثم ملأه الندم فذبح فرسه

﴿ إذ عُرض عليه بالعشي الصافناتُ الجياد ﴾(سورة ص، الآية ٣١)، من ناحية أخرى تحض الأحاديث النبوية المؤمنين على حسن رعاية خيلهم.

وتقول الأساطير إن الحصان خلق من رياح الجنوب السريعة، ويحتاج المرء إلى تأليف كتاب تلو كتاب ليعدد الأوصاف الرائعة للخيل في الشعر العربي، أوصاف من الصعب ترجمتها إلى أي من اللغات الغربية الحديثة، ترجمة تنقل إلى القارئ بتلك اللغات الفروق الدقيقة في اللون والشكل التي كانت شائعة في التراث الشعري العربي.

ونصادف في التراث الشعري، خاصة التراث الفارسي، تقليدا جديرا بالملاحظة، هو الحديث عن الفرس الضعيف أو الفرس الحرون الذي أصبح في التراث الصوفي رمزا على النفس أو الروح الدنيا. ويشكو شعراء الفرس في العصور الوسطى أحيانا أن الأمير أو السلطان أعطاهم خيلا هرمة مترهلة، ويصفون في تهكم تلك المخلوقات الغريبة، زاعمين أن لابد أن تكون الخيل التي امتطاها آدم، وعاشت في زرائب فرعون، وخدمت ملوك إيران القدامى وأسرة الأمير الحالي بكاملها. ولكن الأهم من ذلك بكثير تلك الإشارات إلى الفرس الحرون. وفي بعض الأحيان تظهر المنمنمات الفارسية فرسا نحيلا أضناه الجوع وبجانبه السائس، وقد يصف الشعراء الطريقة التي يتم بها تدريب الفرس الحرون، بالجوع والعمل الشاق، عين الطريقة التي تتحول بها روح أغرتها الشرور إلى "نفس مطمئنة". بالتدريب الشاق وحياة

الزهد، بالجوع والحرمان من النوم يمكن السيطرة علي الفرس الحرون وتحويله إلى فرس سريع رائع يحمل الطالب بأسرع ما يمكن إلى حضرة المحبوب. وجدير بالذكر أن أغاخان محمد شاه الثالث (ت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) أصدر فرمانا عام ١٨٩٩م يقارن فيه الروح بفرس لابد من تدريبه حتى يصل راكبه إلى هدفه المأمول.

والفرس الذي يلقى تمجيدا في صورته الروحية، هو البراق، ذلك المخلوق ذو الجناحين الذي حمل النبي إلى الحضرة الإلهية. نرى للبراق دورا هائلا في الشعر والفنون الشعبية. وتظهر صورة هذا المخلوق العجيب بوجه امرأة وأجنحة مزدانة بشتى أنواع المجوهرات. والذين قدر لهم أن يشاهدوا رسم البراق على مؤخرة سيارات النقل في باكستان لا بد أنهم شعروا أن الفنان الذي رسم تلك اللوحات قد أطلق لنفسه عنان الخيال، ليزين ذلك المخلوق الغريب بكل ما هو نفيس وجميل. ويستخدم رسم البراق في غرب أفريقيا وكذلك في الهند وفي إندونيسيا كتعويذة تجلب الحظ السعيد، وكأن الرسّام يرى فيه مخلوقا روحانيا عجيبا أنعم الله عليه بأن يحمل النبي نحو السماء، لذلك قد يساعدهم على أن يقتربوا من عالم الروح ودار النعيم الدائم.

على قدر حسن طالع الفرس والبراق العجيب، هناك حيوان آخر قريب الشبه بالفرس، هو الحمار، من أكثر المخلوقات حظا من الازدراء. أليس صوته هو أشد الأصوات قبحا، كما جاء في القرآن الكريم في سورة لقمان

﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾(الآية ١٩)، كما أن هذا الحيوان المسكين لا يدري ما يفعل، يوصف شخص بأن أصبح مثل الحمار في الغباء، وتصف سورة الجمعة، هؤلاء الأغبياء ﴿ مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾(الآية ٥). أما الحمقى الذين لا ينصتون إلى النصح فهم مثل حمير مذعورة تفر هاربة من سباع جسورة، كما وصفهم القرآن الكريم في سورة المدّثر ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة ﴾ (الآيتان ٥٠ -٥١)، هؤلاء لا يفهمون ما يدور حولهم. كذلك أصبح الحمار في أوروبا مثالا للغباء ، والمثل الذي يصف أحدا من الناس بأنه "أكل مخ حمار" ، يعني أنه بلغ من الغباء ذروته. في هذا السياق توجد إشارة إلى الحمار ذات أهمية كبيرة عن العلاقة بين عيسى عليه السلام والحمار. نظرا لأن عيسى دخل إلى القدس على ظهر حمار كان من السهل أن نرى في تلك الصورة تعبيرا عن الروح والبدن، كان التناقض بين عيسى، الكائن الروحي، والحمار الغبي المقيد بماديات الحياة، من الموضوعات المفضلة لدي الشعراء الفرس، الذين ذهبوا أحيانا إلى حد بعيد في التعبير عن حقيقة أن الشخص المادي لا يمكن له أبدا أن يصل إلى سمو الروح. كما يقول جلال الدين الرومي:

ذلك الذي يقبّل مؤخرة الحمار ما أبعده عن مهد عيسى.

من المستحيل أن نحصي ولو النزر اليسير من الأوصاف التي قيلت عن الجواد في الشعر العربي، وكذلك الجمل، ذلك الحيوان الذي يؤدي دورا هاما في المجتمع العربي، ليس في واقع الحياة العملية فحسب بل كذلك في القرآن الكريم. يطرح القرآن سؤالا ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ (سورة الغاشية، الآية ١٧) ، كذلك جاء في القرآن الكريم ذكر ناقة النبي صالح في سورة الأعراف ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾(الآية ٧٣)، وفي سورة هود ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾(الآية ٦٤)، وكانت الآيتان الكريمتان مصدر إلهام لصور رائعة في الفن الإسلامي في وقت لاحق. الإبل من المقتنيات النفيسة لدى البدو، لذلك يقال أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ: يا رسول الله هل توجد في الجنة إبل؟ وطمأنهم النبي أن في الجنة كل ما يصبو إليه الإنسان. ولم يقتصر النبي ﷺ على بث الطمأنينة في نفوس الأعراب فحسب، بل وجه النصح إلى رجل سأله عن الاعتماد على الله تعالى قائلا "اعقلها وتوكّل"، يعني أننا نعرف أن كل شيء بأمر الله، ولكن علينا أن نأخذ حذرنا، أن نربط ناقتنا ثم نعتمد على الله في حفظها . والإبل مع كل ما تتمتع به من خصال طيبة، مثل حمل الأثقال والسير لمسافات طويلة دون كلل، لها خاصة غريبة لا يعرفها الكثيرون خارج التراث العربي، تلك هي حبها

للموسيقى، ويمكن أن تستحث لتسير بسرعة لا تصدق إذا كان للحادي صوت جميل. يحكي أبو نصر السرّاج (ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) عن أعرابي لديه تسع وتسعون ناقة انقصمت ظهورها من الإعياء بعد أن وصلت إلى البيت وعلى متونها حمولة ثقيلة، لأن أغنيات الحادي دفعتها إلى أن تسرع الخطى إلى الحد الذي جعلها تصل إلى مقصدها في نصف الزمن المعتاد.

والشعر الفارسي يشبّه العشاق بإبل تحمل الأثقال في رضى وسعادة عندما يغني الحادي أو يعزف على الناي، العشّاق إبل تسير وراء خطى المحبوب في إيقاعات راقصة. جلال الدين الرومي كعهدنا به دائما واسع الخيال في استخدامه لصور الإبل، كما أن الجمل الطويل القامة يشاهد حتى من فوق مئذنة، كذلك العاشق يبدو ظاهرا لا يستطيع لحبه إخفاءً، وينظر الرومي إلى الحب ذاته على أنه جمل فخور بنفسه، لا يستطيع أن يحشر نفسه داخل حظيرة للدجاج. البدن هو حظيرة الدجاج، والجمل الضخم يدمر كل شيء عندما يدخل تلك الحظيرة الضيقة.

تتحدث قصص التراث الشعبي عن التنافس بين الجمل والبقرة، كلاهما يفخر بأنه كان خادما مخلصا لله وللأنبياء منذ الماضي السحيق. ورد ذكر البقرة في القرآن الكريم بأنها تعطي "لبنا خالصا" ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين﴾ (سورة النحل، الآية ٦٦)، كما تحتل البقرة مكانة خاصة إذ

سميت السورة الثانية في القرآن الكريم "سورة البقرة". ويحكى لنا المؤرخ الهندي المسلم بدايوني Badauni (ت ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م)، الذي كان يسجل الأحداث في قصر الإمبراطور أكبر، أنه في اجتماع بين العلماء المسلمين والهندوس نظّمه أكبر، علق أحد الحاضرين من الهندوس قائلا لا بد أن الله أحب البقرة حبا شديدا حتى أنه أطلق اسمها على أطول سورة في القرآن، وتعجب العلماء المسلمون كثيرا من تلك الملاحظة. بينما كان الهندوسي سعيدا برأيه أن البقرة، وهي حيوان مقدس عنده، قد نالت هذا التكريم الكبير في القرآن.

فيما عدا ذلك نادرا ما تذكر البقرة في الأدب، وإن كانت تمتدح لأنها تنتج اللبن والزبد، ولكن دعنا لا ننسى تلك الملاحظة الحكيمة للرومي عن التعليم:

إنك تضرب البقرة عندما ترفض أن تحمل النير
ولكن لا تضربها لأنها لا تنبت جناحين

لا يمكن أن يقهر أحد على أن يفعل أشياء لم تهيئه فطرته لها. ومن الخطأ أن نمتطي البقرة كأنها دابة للركوب، كما جاء في قصة صوفية قديمة. عندما اعتلى شخص ظهر بقرة سمعها الناس تغني: أنا لم أخلق لهذا الغرض.

ونأتي إلى الضأن، تذكر الشاة كحيوان نستمد منه اللبن، لكنها في الأساس الحيوان الذي يجسم النموذج المثالي للتضحية، مخلوق رقيق القلب

يصنع الناس من صوفه السجاد والثياب وغير ذلك من أشياء نافعة، بينما يفضل لحمه في الأضاحي.

المعزة بدورها يمكن أن تعطي شيئا من اللبن، ولكن ميزتها الحقيقية هي جمال الشكل، وكثيرا ما كانت لحية ذكر الماعز: التيس موضوعا للتشبيهات، مثلما يقول جلال الدين الرومي في شيء من المبالغة :

اللحية الطويلة لا تؤهل صاحبها لأن يكون قاضيا

وإلا لأصبح ذكر الماعز قاضيا للقضاة

والخنزير من بين الحيوانات المستأنسة في البلدان غير المسلمة، بينما يتباعد عنه المسلمون. وقيل إن الأشرار في يوم القيامة سيتحولون إلى خنازير. ونسج العطار على هذا القول ليحكي لنا عن طالب علم ترك سيده وانغمس في جميع أنواع الرذائل الدنيوية، ثم شوهد وقد تحول إلى خنزير يسير وراء سيده في الطرقات.

وجميع الحيوانات المستأنسة تعاني بشكل أو بآخر من خطر الحيوانات المفترسة. ابن آوى هو بطل حكايات "**كليلة ودمنة**"، واثنتان من بنات آوى تميزتا بالمكر وانتشرت قصصهما في جميع أنحاء العالم. وكثيرا ما تظهران كثعلبين. وتنتقل العديد من القصص من تراث إلى آخر. وربما تكون أشهر القصص قاطبة تلك التي تحكي عن ابن آوى أو الثعلب الذي تطلع

إلى السلطة وذهب إلى صباغ ليعطي نفسه لونا جديدا. وعندما خرج من محل الصباغة كان في لون أزرق براق ، وقدم نفسه إلى بنات آوى أو الثعالب الأخرى على أنه حاكم شديد البأس، على الآخرين أن يقدموا له الولاء والطاعة. ولكن الحيوانات سرعان ما اكتشفت أكاذيبه، وألقت به خارجا. وتحكي القصة التي ظهرت في بلاد السند عن ابن آوى أنه تسلق فروع شجرة شوكيّة قريبة من مورد ماء الشرب، وطلب من كل حيوان أن يعلن له الولاء قبل أن يشرب. وبينما أنشدت جميع الحيوانات أغنيات المديح، رفضت ماعز عجوز وأعلنت حقيقة المدعي، الذي أرغم عندئذ إلى أن يرجع عن خيلائه.

والذئب من الحيوانات الخطرة التي جاء ذكرها في القرآن، ولكن القرآن برأ ساحته، وكان من المفترض أن يكون الذئب أكل يوسف ولكنه في الحقيقة بريء من دمه ﴿ قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ (سورة يوسف، الآية ١٧). رغم أن إخوة يوسف في هذه السورة يبدون أكثر قسوة من الذئب، ظل الذئب تجسيدا للقسوة، أضف إلى ذلك أنه لا يمكن بحال تدريب الذئب. وتحتوى الأعمال الأدبية ذات المواعظ الأخلاقية على الكثير من القصص حول سلوك الذئب. كما جاء في بيت شعر فارسي:

لقد تربيت في بيتنا رغم ذلك أكلت خروفنا

من الذي أنباك بأن أباك كان ذئبا؟

بل وحتى الذئب نفسه يؤمن برسالة النبي، كما نري حكايات أسطورية قديمة في كتاب "**دلائل النبوة**" لأبي نعيم الأصبهاني (ت٥١٧هـ/١١٢٣م).

وأقوى الأعداء قاطبة هو الأسد، ملك الوحوش، له في التراث مئات من الأسماء. والجميع يعرفون بيت المتنبي:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة　　　فلا تظنن أن الليث يبتسم

ولكن هؤلاء الذين يخشون الله لا يخشون من الأسد شيئا، كما توضح لنا العديد من القصص الطريفة. تعيش الأسود الأليفة بالقرب من بيوت أولياء الله، الذين يستطيعون امتطاء ظهر الأسد. ونصادف قصة جميلة عن اللبؤة التي اقتربت من صوفي ورع وأظهرت له أن بها شوكة في برثنها. وأخرج الصوفي الشوكة من برثن اللبؤة، وعادت اللبؤة الشاكرة في وقت لاحق ومعها أشبالها لتحضر لصديقها الصوفي شيئا من الطعام. ويرى الرومي أن الحب أسد أسود اللون يؤذي المحبوب ويستولي عليه. ويشبّه ما يتمتع به الأسد من جمال مشع وقوة، بإشعاع نور الإيمان الحقيقي. ويبدو الأسد في الظاهر شديد الخطورة يصعب الاقتراب منه، ولكنه يصبح رقيقا عطوفا عندما يقترب منه مؤمن مخلص الإيمان. أهمية الأسد كنموذج للقوة تبدو واضحة في إطلاق العديد من أسماء الأسد على الرجال، وكما أشرنا سلفا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه له عدد من الألقاب تصفه بأنه "أسد الله". كذلك يحب الفنانون المسلمون، خاصة الشيعة منهم، أن يكتبوا المدائح في

علي رضي الله عنه ويصورونه في صورة أسد، والعديد من مثل هذه الأسود المرسومة بالخطوط الزخرفية تحتوى على الابتهال الشيعي "نادِ عليا مظهر العجائب". ونجد العديد من القصص الطريفة عن الأسد، منها قصة من شمال أفريقيا. يقال إن شيخا صوفيا مغرورا ركب على ظهر أسده وذهب ليزور شيخا آخر يعيش في مكان ما على جبال الأطلس، وعندما وصل إلى مقصده طلب مضيفه منه أن يربط أسده في وتد في حظيرة البقر، فانتابه الرعب بل أصبح أشد رعبا عندما رأى مضيفه مستمتعا بصحبة فتيات ومغنيات جميلات، وراوده الشك في المرتبة الروحية لمضيفه، وعندما ترك البيت في الصباح التالي وجد أن البقرة قد أكلت الأسد.

في كثير من الأحيان يظهر الأسد - كما هو الحال في واقع الأمر - عدواً للغزالة. ودائما تمثل الغزالة الخجول السريعة الحركة المرأة المحبوبة، جميلة واسعة العينين، كما نرى من الأسماء التي يسمي بها العرب بناتهم. ويمكن أن تمثل الغزالة ذلك المخلوق الروحي الذي يرعى في المروج المليئة بالزهور العطرة، ولا يخالط صنوف الحيوانات الأخرى. ويصف الرومي آلام غزالة رقيقة صيدت ووضعت في حظيرة حمار، حيث كانت محلا للكراهية بسبب شكلها الجميل وعجزها عن أن تأكل العلف الخشن، وسخر منها الحمار ووصفها بألفاظ بذيئة. والغزالة هنا مثال آخر للروح السجينة في عالم المادة، بين أولئك الجاهلين بعالم وراء عالمهم المادي. ومن بين قصص

الغزال تلك القصة الجميلة عن النبي ﷺ وهو ينقذ غزالا . بينما كان النبي ﷺ في جولة شاهد غزالة وقعت في كمين، وتحدث إلى الغزالة التي أخبرته عن طفليها اللذين ينتظران عودتها بالطعام، ولكن كيف تستطيع الآن أن تصل إليهما؟ ساعدها النبي ﷺ ففك أسرها، ووعدها بأن يبقى في مكانها حتى تنتهي من أداء واجباتها نحو صغيريها، وبينما كان النبي ﷺ واقفا هناك وصل الصائد، وقد خاب أمله حين وجد فريسته هربت، ويقف مكانها رجل (ولم يعرف أن الواقف هو النبي ﷺ)، عندما عادت الغزالة ومعها صغيراها، تأثر الصائد بهذا المشهد، ولم يطلق سراح الغزالة فحسب بل دخل في الإسلام. هذه القصة مثار إعجاب وحب كبيرين، حتى أننا نجد عنها في لغة السند وحدها ثلاث عشرة قصيدة طويلة.

ولا ننسى قصة أخرى رائعة عن حيوان قريب من الغزال، ذلك هو ظبي المسك، الذي يعيش في آسيا الوسطى. جاء ذات يوم إلى آدم يطيب خاطره بعد أن طرد من الجنة، وربت آدم على ظهره في عطف وحنان، وهذا هو الذي أدي إلى ظهور عطر المسك زكي الرائحة، وتعجبت سائر الظباء مما حدث، وبعد أن عرفت كيف حصل على هذا العطر ذهبوا بدورهم إلى آدم، ولكن لم يتحقق لهم المراد، وقيل لهم إن الظبي الأول جاء إلى آدم مدفوعا بالحب والعطف بينما هم ليسوا بأكثر من مقلدين، والتقليد لا يؤتي ثمارا .

وآخر الحيوانات الضخمة التي نصادفها في "حديقة الحيوانات الروحية" هو الفيل، الذي جاء ذكره في سورة الفيل. من الناحية التاريخية كان الفيل معروفا في الشرق الأوسط، واستخدم في الحرب في بلاد فارس، كما استخدم في حصار أبرهة لمدينة مكة المكرمة في عام الفيل. ومن ثم يبدو الفيل للوهلة الأولى كحيوان شديد الخطر، وحش أسود يمكن أن يدمر كل ما يعترض طريقه. يشبه شعراء فارس السحب السوداء المتصاعدة بالفيلة. ويبدو أن الفيلة جيء بها على فترات متباعدة إلى البلاد الإسلامية (ربما من إفريقيا أكثر مما جاءت من الهند)، ومن المعروف في التاريخ الأوروبي أن الخليفة العباسي هارون الرشيد (حكم من عام١٧٠هـ/ ٧٨٦م إلى١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م) أرسل فيلا إلى الإمبراطور الألماني شارلمان Charlemagne في أكس لي بين (آخن)، Aix-les-Bains (Aachen) وطبقا لحوليات التاريخ الألماني يدعى هذا الفيل جعفر.

كذلك جيء بالفيلة من الهند، والفيل الذي كان موضوعا لواحدة من أشهر القصص في الأدب الإسلامي فيل من الهند، تلك هي قصة العميان والفيل. وهي في الأصل قصة هندية اقتبسها الشاعر الفارسي سنائي في ديوانه "**حديقة الحقيقة**"، وأخذها عنه جلال الدين الرومي وأدخلها ضمن **المثنوي**. أعيد ذكر تلك القصة في مصادر شرقية منذ ذلك الحين وأصبحت معروفة كذلك في أوروبا، إلى حد أننا نجد في إحدى الحدائق العامة في بون تمثالا لفيل يحيط به مجموعة من العميان. تحكي القصة أن

العميان أرادوا أن يعرفوا شكل الفيل، ولما كانوا لا يستطيعون رؤيته اعتمدوا على حاسة اللمس. ولم يستطع أحد منهم أن يلمس الفيل بأكمله، لذلك وصف كل منهم الجزء الذي لمسته يده. الفيل مثل الصخرة إذا لمست جسمه، مروحة إذا لمست أذنيه، خرطوم إذا لمست خرطومه، عمود إذا لمست ساقه، وهكذا دواليك، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يتخيل شكل الفيل بكامله. وقصة الفيل والعميان خير مثال على عجز الإنسان عن أن يدرك طبيعة الله إدراكا كاملا. لا نستطيع أن نتحدث إلا عن الجزء الذي لمسته يدنا الروحية. لذلك كل إنسان له فكرة مختلفة عن الله ونحن نسعى جاهدين إلى إدراكه.

ولا يزال هناك جانب عن الفيل جديراً بالذكر. كثيرا ما يكون للفيل أهمية في بعض البلدان لأنه من الدواب التي تحمل الأثقال. وقد ابتكر شعراء الفرس صورة خيالية جميلة، هي "حلم الفيل". يحلم الفيل بموطنه الأصلي في الهند، ويتذكر بيته وأسرته وأصدقاءه، في نوبة غضب عارمة يخلع عن نفسه القيود والأغلال، ويجري مسرعا إلى الهند ليلتقي مع الذين يحبهم. عبر رديارد كبلنج Rudyard Kipling عن هذه القصة في قصيدة جميلة بعنوان "حلم الفيل" . وعندما يضرب مثل " الفيل يحلم ببلاد الهند" ، معناه أن شخصا تذكر فجأة وطنه المفقود وسعادته التي اعتلاها غبار النسيان. ويبدو أن هذا التعبير ظهر في بلاد فارس حوالي عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠م، وظل شائعا طوال القرون اللاحقة. هنا كذلك نرى الإشارة إلى وطن الروح: عالم

الغيب، الذي يسهل أن ننساه في عالم المادة، مثلما قد ينسى الصقر سيده وينسى الطاووس الحديقة موطنه. والفيل هو أحد الكائنات الجميلة، التي تمثل الروح عندما تستيقظ من غفلة النوم لتعود إلى بيتها الأبدي.

ووفقا للتراث الشرقي يمكن أن يصاب الفيل بجروح، بل ربما قتله الكركدن: وحيد القرن. في النقوش الفارسية على الحجر والخزف بدءا من القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين نرى وحيد القرن يحمل على قرنه فيلا، الرومي في كتاباته المعاصرة لتلك الأعمال الفنية يشبه الحب بوحيد القرن، الذي قد يحمل على قرنه أقوى الفيلة. ألهم وحيد القرن، كما يظهر في التراث المسيحي- على قدر علمي- قصيدة عربية وحيدة، تلك هي قصيدة " بضعة أسئلة لأطرحها على الكركدن"[1] للشاعر توفيق صايغ (ت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) التي يقول فيها:

"قدتهم وحيدا مثل القرن في وسط رأسك"

ويشكل الحيوان جزءا هاما من التراث الإسلامي. ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر مما ورد في الكتاب المقدّس، ويمكن أن يكون رموزا لحقائق روحية وتحذيرا ونصحا لأولئك الذين يفقهون. ونعلم من القصص التي قيلت عن الحيوان على مر التاريخ، مثلما نعلم من العهد القديم، أنه في النهاية سيرقد الأسد والحمل جنبا إلى جنب ولن تكون بينهما عداوة.

---

(١) قصيدة وردت في ديوان: معلقة توفيق الصائغ، انظر: توفيق الصائغ، **الأعمال الكاملة**، المجموعات الشعرية، رياض الريس للكتب، لندن، ١٩٩٠م، ص ص ٢٥١-٢٧٧.

ووفقا لقصص الصالحين تسير بعض الحيوانات على نهج الشريعة. ونجد قصصا مؤثرة عن نمل أو طيور تصوم في شهر رمضان أو في يوم عاشوراء، ويقال إن الحيوانات تحيي بعضها بعضا أيام الجمعة بكلمة "سلام".

ويبدو من المفيد أن نتذكر دور الحيوان هذا عندما ننسى أحيانا دورنا البشري. ويمكننا أن نرجع إلى حكايات الحيوانات، عن حبها وشجاعتها، ونستلهم شيئا من الطريقة التي استخدم بها العلماء والشعراء في عصور خالية قصص الحيوان، ليبينوا لنا أننا جميعا تحت رحمة الخالق وعنايته. وكما جاء في سورة هود ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ (الآية ٦).